African Journal of Advanced Studies in Humanities and Social Sciences (AJASHSS)
المجلة الإفريقية للدراسات المتقدمة في العلوم الإنسانية والاجتماعية
Online-ISSN: 2957-5907
Volume 2, Issue 1, January-March 2023, Page No: 70-86
Website: https://aaasjournals.com/index.php/ajashss/index

الأزهر في العهد الفاطمي

د. محمد مصطفى السماعيل*
الهيئة العامة للشؤون الإسلامية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة

Al-Azhar in the Fatimid period

Dr. Mohamed Mustafa Samaiel*
General Authority of Islamic Affairs, Abu Dhabi, United Arab Emirates

*المؤلف المراسل	mahd198171@gmail.com	*Corresponding author
تاريخ الاستلام: 2022-12-07	**تاريخ القبول:** 2023-01-01	**تاريخ النشر:** 2023-01-05

الملخص

لا يُرام مِن تقديم هذا البحث بين يدي القارئ تعريفُه بالجامع الأزهر، ولا بيانٌ لمكانته، فادعاء ذلك ضربٌ مِن الخروج عن دائرة المنطق، فمَن ذا الذي لم يعرف الأزهر أو يسمع عنه؟! وعليه فإنّ مكانته مقترنة بشهرته، لذلك أقول: ما هذه الدراسة إلا توضيحٌ لكلّ ما يتعلق به سوى التعريف به وبيان مكانته، فهذه دراسة تأريخية للأزهر، تذكر النشأة، والمُنشئ، والمراحل التي مرّ بها...الخ، ومهما اجتهد الدارس في بيان ذلك فلن يُعصَم مِن إنقاص أو تجاوز معلوماتٍ قصد ذلك أم نسي أم جهل.

الكلمات المفتاحية: الأزهر، جوهر الصقلي، الفاطميون، المعز لدين الله الفاطمي، جامع القاهرة.

Abstract

The intent of presenting this research is not for the reader to know the importance of Al-Azhar Mosque, and it is not for him to know its status and value. This research studies the history of Al-Azhar, its history and the stages it went through.

Keywords: Al-Azhar, Jawhar al-Siqilli, Fatimids, al-Mu'izz li-Din Allah al-Fatimi, Cairo Mosque.

المقدمة:

الحمدُ لله ربّ العالمين، وصلاة وسلاماً دائمين على سيّدنا محمد ﷺ وعلى آلهِ الطيّبين الطاهرين، وأصحابهِ المصطفَين، ومن تبعهم واهتدى بهداهم، وبعد:

الأزهر، ما الأزهر؟ إذا ذكِرَت المساجدُ كان الأزهر في طليعتها، وإذا عُدّت الصروح تربّع الأزهر مكانة عظيمة بينها، وإذا تحدّثنا عن الجامعات فجامعة الأزهر هي أمّ الجامعات، ومهوى أفئدة طلاب العلم من شتى أصقاع الأرض، فحريٌّ بمَن كان للأزهر ولا يزال له عليه فضلٌ ومِنّة أنْ يكتب عنه، فلا أنسى أياماً قضيتها في رحاب الجامع الأزهر أتنقل بين ساحاتِه وحرمِه، وأمشي حثيثاً غادياً ورائحاً بين جنباته وأروقته حاملاً كتابي، معتزاً بانتسابي لجامعته مستذكراً قول أمير الشعراء:

قمْ في فمِ الدّنيا وحيِّ الأزهرا وانثرْ على سمع الزمان الجَوهَرا

واجعل مكان الدرّ إنْ فصَّلتهُ في مدحِه خرزَ السماء النيـِّـرا

واذكره بعد المسجدَيْن معظماً لمساجد الله الثـــــلاثة مُكبـِـرا

واخشع مليّـاً واقضِ حقَّ أئمّةٍ طلعوا به زُهـــــراً وماجوا أبحُـرا

وقد كان يخيَّل لي خيال حقيقة ويقين، أنّ هذا الشعور والفخر هو شأن كلّ الطلاب الذين يتدارسون العلم مِن حولي في الجامع.

أهداف الدراسة:

إنّ ما حدا بي للكتابة حول الأزهر، يقيني بأهميَّته التاريخيَّة، ودوره الرائد كأول جامعة إسلاميةٍ، ومركزٍ لانطلاق للدعوة، مما ميّزه عن غيره مِن المساجد.

وكذلك تعاقب العصور والخلافات عليه، وكيف أنّ مكانته ودوره كانا يزيدان وينقصان حسب الخلافة والحكومة التي تحكم مصر، ليُعلَم أنّ التاريخ أمينٌ، يَذكر كلاً بما قدّم.

أهمية الدراسة:

أردتُ باختياري للعصر الفاطمي بالذات، الإشارةَ ولفتَ النظر للدور العظيم الذي لعبه في تلك الحقبة، والمكانةِ العليا التي كان يتبوّؤها الأزهر في ظلّ الخلافة الفاطمية، كما أنّ للفاطميين الفضلَ الأول في ولادة هذا الصرح العلمي الأغرّ، بصرف النظر عن أهدافهم التي لأجلها شيّدوه، وعدمِ وفائهم بالوعد الذي قطعوه على أنفسهم مِن أنْ يتجنّبوا إضفاءَ الصبغية الشيعية عليه، وأنْ يكون ميداناً دينياً لكل المذاهب الإسلامية والتوجهات.

منهجية الدراسة:

المنهج التاريخي هو أساس البحث، والجديرُ بالذكر هنا أنني عند إعداد البحث رجعتُ إلى العديد من الكتب المؤلّفة عن الأزهر والفاطميين، وإنَّ أكثرَ هذه المراجع التي اعتمدتها في بحثي اعتمدَتْ في نقلها كتابَ " الخطط " للمقريزي الذي استوفى الحديث عن الفاطميين مدَّة خلافتهم بشكل كامل، كما أفرد الحديثَ عن الأزهر بعنوان مستقل في قسم الجوامع، فتحدث عنه بتطويل وإطناب، لذلك استوحيتُ بعض معلومات البحث من كتابه، كما اعتمدَتْ أكثرُ المصادر ــ التي ذكرتـُها واعتمدتها ونقلتُ عنها في هذا البحث ــ عليه في نقلِها، وسيتضح هذا ضمن البحث، فرجعتُ إليه لنقل بعض المعلومات، وكذلك للمقارنة والتأكدِ من صحة النقل.

" اللهَ أسألُ أنْ يوفقني في بحثي، وأنْ يهديَني إلى الحقيقة والصواب، وأنْ يلهمَني الصحيحَ مِن الأخبار، وأنْ يسدِّدَ قلمي في حسن الاختيار، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه".

الدراســـــة:

ــ الفاطميّون:

لا بدَّ في بداية البحث مِن التعريف بالفاطميين وإنْ بإيجاز.

الفواطم أو الفاطميون: هم أسرة حكمت شمال إفريقيا، وقد أسّسها أبو عبد الله الشيعي في أوائل القرن العاشر الميلادي.

بدأ تأسيسُ الدولة الفاطمية بالمغرب العربي، ولما آلت الخلافة إلى المعزّ لدين الله 953-975م دخلوا مصر، وقد فتحها قائده جوهر الصقلي 969م، فدخل الإسكندرية ومنها إلى القاهرة والتي كانت تعرف آنذاك باسم (الفسطاط)، فأسَّس القاهرة ثم اتخذها المعزُّ لدين الله عاصمة للدولة الفاطمية، واستولى على غرب بلاد العرب وفلسطين وسورية.

أمَّا الإنجازات التي قام بها الفاطميون، والتي كانت ولا تزال تُذكر في ذاكرة التاريخ، فلقد كان جلُّها في مصر وفي القاهرة بالذات، ومن أهمِّها الأزهرُ، ودارُ الحكمة، والتي جعلوا منهما منبراً لتدريس المذهب الشيعي والدعوة له.

تلا المعزَّ لدين الله الحاكمُ بأمر الله 996-1021م، ثم تعاقب الخلفاء الضعاف الذين لم يكونوا على المستوى نفسه ممَّن سبقهم، فخضعت الدولة لحكم الوزراء والقادة مما أدى إلى ضعفٍ اجتماعي عامّ إلى حدٍّ كبير، فكثرت الفتنُ والمجاعات، ولكن بالرغم من ذلك فقد ازدهرت العمارة والفنون بجميع ألوانها في ظلِّ الفواطم، وقد انتهى عهدهم و زال حكمهم في 1171م، عندما عُيِّن صلاح الدين الأيوبي وزيراً على مصر من قِبل السلطان نور الدين محمود رحمه الله 1118-1174م، وبدأ عهدٌ جديدٌ كان أولى أولوياته القضاءُ على المذهبِ الشيعيِّ الذي بذل الفاطميون في سبيل الترويج له ونشره الغاليَ والنفيس.

وهكذا بدأ العهد الفاطمي بأبي عبد الله الشيعي 901م، وانتهى بالعاضد لدين الله 1160- 1171م[1].

الأزهـــــــــر

التعريف به:

الجامع الأزهر هو الجامع العريق، والبناء الشامخ، الذي يقع في الجنوب الشرقي من مدينة القاهرة، على مقربةٍ من القصر الكبير الذي كان موجوداً بين حيّ الديلم وحيّ الترك في الجنوب، والمجاور لميدان الحسين، وهو يقع بين خطّين عامرين بالآثار الإسلامية وهما: الدرب الأحمر والجمالية، وهو منذ تأسيسه أعلِن مركزاً للثقافة الإسلامية والعلوم الشريفة، فهو أول جامع أنشئ بمدينة القاهرة الفاطمية.

وهو أبو الجامعات الدينية في العالم الإسلامي، وهو الذي يمدُّها بالتوجيه والخبرة وبالخطط العلمية المدروسة وبالمناهج والأساتيذ، وقد قامت على نمطهِ مختلفُ الجامعات الإسلامية الحديثة في أنحاء العالم الإسلامي، وصار هو الصورة المشرقة لكل الجامعات، وهو الذي يلخِّص تاريخ الحضارة الإسلامية كلِها طوال ألف عام. إنه روحُ هذه الحضارة والمعبِّرُ عنها والمترجمُ لثقافتها، وهو موئل العربية وملاذها الآمن منذ قيامه إلى اليوم[2]

ولقد كانت أهمية إنشاء الأزهر لا تقتصر على مصر وحدها، بل كان الأزهر محلَّ اهتمام العالم الإسلامي كلِه، حتى أنه لما اجتاح المغولُ بغداد 1258م، لم يؤثر ذلك على مكانة الأزهر، فاستمرت الجموع من طلاب العلم تتوافد إليه من مختلف بقاع العالم الإسلامي لتلقي العلم، كما أنَّ الأزهرَ الشريفَ كان له مكانة عظيمة في العهد الفاطمي وما بعده إلى عهدٍ ليس بالبعيد، كانت تمكنه من أن يقوم

بدور سياسي في المشاكل المصرية سواء الداخلية منها أو الخارجية.[3]

[1] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار، مصر، 1970، ص 11-12

[2] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار، ص9-12
عبد الرحمن زكي، القاهرة "تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، مصر،1966م ص17

[3] - عبد الرحمن زكي، القاهرة "تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، ص 30

تسميته:

لم يكن الأزهر يُعرف منذ إنشائه بهذا الاسم، و إنما أطلِق عليه اسم (جامع القاهرة) وظلت هذه التسمية غالبة عليه معظمَ سنواتِ الحكم الفاطميّ، ثم عُرف بالجامع الأزهر في عهد العزيز 975-996م على الأرجح، ولا يزال هذا الاسم متداوَلاً إلى يومنا هذا[4].

أمَّا تسميته بالأزهر فاختلِف في السبب، فقيل: لأنه كان مُحاطاً بقصور زاهرة، وقيل: لأنه كان أكبرَ الجوامع على الإطلاق رواءً وجلالاً وفخامة، وقيل: لأنه ينتسب إلى الفاطميين وإلى فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وقيل: سمي بهذا الاسم تفاؤلاً بما سيكونُ له من المكانةِ والجلالِ والازدهار العلمي في تاريخ الثقافة الإسلامية[5].

وكل هذه الآراء محتملة وقريبة للعقل، ولكن يبدو لي من خلال بناء هذه الصفة على هذا الوزن أنَّ الرأيَ الأخير هو الأرجح، وهو أنه سمي بالأزهر تفاؤلاً بما سيكون له من الشهرة والتميز والازدهار العلمي في تاريخ الثقافة الإسلامية ــ والله أعلم ــ.

هندسته وشكله:

عندما بُني الأزهر في العهد الفاطمي كان مخططه الأفقي مكوناً من ثلاث إيوانات حول الصحن، الشرقي منها مكوَّن من خمسة أروقة، المشرف منها على الصحن يقوم على أكتاف، أما الأروقة الباقية فمن أعمدة رخامية، ولقد بلغ عدد الأعمدة الرخامية التي بناها جوهر الصقلي بداية الأمر ستة وسبعون عموداً في صفوف متوازية، ثُمَّ زيدت فيما بعد، وفي كلٍّ من الجانبين القبلي والشمالي ثلاثة أروقة، المشرف منها على الصحن قائم على أكتاف أيضاً. أما الجدار الغربي فليست به أروقة، ويتوسطه الباب العام وكانت تعلوه المنارة، وكانت منارة واحدة ابتداءً ثم أصبح فيما بعد خمسة منارات، يرفَع فيها الأذان خمسَ مراتٍ في اليوم والليلة، وكانت مساجدُ القاهرة تتبعُ في الأذان أصواتَ المؤذنين في الأزهر.

وبأعلى الجدران شبابيك جصّية مفرَّغة بأشكالٍ هندسية، عقودها مستديرة ويشطر الإيوانَ الشرقي مجازٌ متجهٌ مباشرة إلى المحراب ارتفعت عقوده وسقفه عند مستوى ارتفاعات الجامع وقد كتب كتابات بالخط الكوفي على عقود هذا المجاز.

أما خواصر هذه العقود فقد حُليت بزخارف نباتية متنوعة، ويعلو المحرابَ قبة كتِبَ بدائرتها " بسْم الله الرَّ حمن الرَّحيم مما أمر ببنائه عبد الله ووليّه أبو تميم معدّ الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلي وذلك في ستين وثلاثمائة"

أما المحاريب فلقد أنشئ بداية محرابٌ واحد في المقصورة القديمة لا يزال إلى الآن ويسمى الآن: (القبلة القديمة) ثمَّ أقيمت تسعة محاريبَ لم يبقَ منها إلا ستة، أشهرها اثنان: أحدهما في المقصورة القديمة والآخر في الجديدة.

وكان للجامع ثلاثة أبواب في جدرانه القبلية والشمالية والغربية.

ويُعدُّ التخطيط الأصلي الذي أنشئ هذا الجامع عليه معقداً إلى حد كبير ولذلك زاد كثيرٌ من الخلفاء الفاطميين في بنائه وأعادوا تجديدَ كثير من أجزائه وأضافوا إليه زياداتٍ كثيرة. أمّا الآن فلم يبق إلا بقية باقية من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية كتبت على العهد الفاطمي، والتي تعدَّ مِن ميزات العمارة

[4] - محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقيا ومصر وبلاد الشام، مصر، 2007ص 195
محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا، مصر،2004 ص 17

[5] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار ص 9-10
عبد الرحمن زكي، القاهرة " تاريخها وآثارها" ص 17
محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام، مصر، 2002، ص20

الفاطمية، أمّا أجزاؤه الحالية فجُلها تنسب لعصر متأخر، فلقد أضاف المستنصرُ والحافظ على بناء الجامع بعض أجزائه، إلا أن الأيوبيين قطعوا عنه كثيراً من الوقف الذي كان مخصَّصاً له والذي كان يساهم في تجديده المستمر.[6]

ويذكر: أنَّ السلطان (قاتباي872-890هـ) كان من أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع الهجري، كما يُذكر عن الخلفاء الفاطميين: أنهم كانت لهم مناظرُ كثيرة توزعت بين القاهرة وضواحيها وأماكنَ أخرى كما ذكر المقريزي في خططه. وكان من أشهر هذه المناظر: منظرة بجوار الجامع الأزهر من جهة القبلة وكانت تشرف على الجامع الأزهر، فكان يجلس الخليفة فيها لمشاهدة ليالي الوقود، وهذه المنظرة تختلف عن المنظرة التي كانت داخل الجامع الأزهر والتي كان الخلفاء يجلسون فيها حين يأتون إلى الجامع للخطابة في شهر رمضان[7]

أروقة الجامع الأزهر:

في البداية لا بُدَّ لنا أن نفرّق بين الأروقة كنظام هندسي سُميت بهذا الاسم، وبين الأروقة كمساكن للطلبة.

يذكر أحد علماء الآثار: أنّ الخليفة الفاطمي الــحافظ لدين الله 1130-1149 م

أمر ببناء أعمدة رخامية تحيط بجوانب صحن الجامع الأزهر الأربعة ثم بنى عقوداً فوق هذه الأعمدة، وقد عرفت هذه الإضافة أي: (بناء الأعمدة الأربعة حول الصحن) باسم " رواق " و أن إضافة هذه الأروقة كانت إحدى التأثيرات والتزيينات المعمارية الإسلامية التي دخلت إلى مصر من بلاد المغرب، حيث إنها كانت موجودة في مسجد عقبة بن نافع في القيروان، وفي الجامع الكبير في سوسة، وفي جامع الزيتونة في تونس. وقد كانت هذه الإضافات (الأروقة) في بلاد المغرب تعرف باسم (المجَنَّبات)

أمَّا أقدمُ وأهمُّ هذه الأروقة في الجامع الأزهر فقد كان رواق "المغاربة "، ولا يزال هذا الرواق محتفظاً بمكتبته القديمة وهو مخصَّصٌ الآن لطلاب ليبيا والجزائر وتونس ومراكش.

ويُذكر: أنَّ ابنَ خلدون رحمه الله كان يبحث ويراجع في مكتبة هذا الرواق، ومن بعده أيضاً شهاب الدين المقري وله تعليقات كثيرة على بعض مخطوطات المكتبة[8].

وفي الحقيقة يظهر من هذا أنّ هذه الأروقة لم تستخدم في بداية الأمر كمساكن للطلبة بل سكناً للفقهاء، وذلك عندما أخذ الخليفة العزيز باقتراح وزيره يعقوب بن كلس الذي عرضه عليه سنة 378 هـ بتنظيم دراسة علمية في الأزهر يعيَّن لها سبعٌ وثلاثون فقيهاً تجري عليهم مرتبات ومعاشات، وتخصص لهم دُورٌ بجوار الأزهر يقيمون بها.

ويذكر المقريزي: أنَّ هذه الأروقة منذ أن بُنيت فإنه لا يزال الفقراء يلازمون الإقامة فيها ما بين عجم، وزيالعة، ومن أهل ريف مصر، ومغـــــاربة، ولكل طائفة

من هؤلاء رواق يعرف باسمهم، وأنه في هذه الأيام (أيام المقريزي) أي: في بدايات القرن التاسع الهجري، بلغ عدة المقيمين في هذه الأروقة سبعمائة وخمسون رجلاً من جنسيات وطوائف مختلفة.

---

[6] - إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي، بيروت،1997م، ص82
حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، مصر،1981، ص 536

[1] – تقي الدين المقريزي، الخطط المقريزية، بغداد، 1970م، (465/1)
2ـ حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، مصر، ص 165 -166

لم يقتصر نفع الأروقة على طلاب وأساتذة الجامع الأزهر فحسب، فلقد كانت أروقة الأزهر مليئة بالنزلاء من الطلاب الذين وفدوا من كافة أنحاء العالم، لا سيما من أفريقيا، الذين كانوا ينتسبون للكتاتيب والجمعيات التي كانت ترعى هؤلاء الطلاب، و تقوم بتعليمهم القرآن الكريم وعلومه، واللغة العربية، ليؤهلهم هذا التعليم إلى الالتحاق بالتعليم الأزهري بمختلف مراحله فيما بعد، ويصبحوا من المجاورين أو يقيموا داخل صحن المسجد.[9]

تجديده:

جدَّد الحاكمُ بأمر الله الجامعَ الأزهر سنة 400 هـ، وفي عام 427هـ جدد بناءه المستنصرُ بالله معدّ بن الظاهر، ثم اقتفى أثرَه في تجديد الجامع وتطويره حفيدُه المنصور أبو علي الآمر بأحكام الله والذي تولى الخلافة سنة 495هـ/1101م.

ثم جَدّده أبو الميمون الحافظ لدين الله عبد المجيد، الذي تولى الخلافة سنة 524هـ/1129م، فانشأ فيه مقصورة سمَّاها مقصورة (فاطمة الزهراء) وهي التي تجاور الباب الغربي الذي في مقدمة الجامع بداخل الأروقة.[10]

وقد كانت مساحة الأزهر عند انقضاء الدولة الفاطمية 13000ذراعاً، أي: أقل من نصف مساحته الحالية فقد أصبحت مساحته اليوم26333ذراعاً أي:12000متر

مربعاً 3.

مؤسس الأزهر:

القائد (جوهر الصقلي) هو من شرع في بناء الجامع الأزهر وذلك بعد عام من فتح الفاطميين مصر، بعد أن أرسله المعزُّ لدين الله الفاطمي -الذي كان في المغرب- إلى مصر فاستولى على الإسكندرية أولاً ثم زحف إلى الجيزة فدخلها في11شعبان عم 358هـ/969م، ثم دخل عاصمة مصر الأولى آنذاك (الفسطاط) فبنى فيها القصرَ الفاطميَّ الكبير ليكون مَقرّاً للمعز لدين الله الفاطمي.

وفي يوم السبت 24من جمادى الأولى عام359هـ الموافق إبريل 970م شرع في بناء الجامع الأزهر إلى جانب ذلك القصر الكبير.

استمرَّ البناء عامين من 970 إلى 972 م، وتمّ البناء، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في السابع من رمضان عام361هـ/972م،و في آخر شهر رمضان المبارك أقام المعزُّ الصلاة بنفسه بالأزهر، فخطب فيه خطبة العيد، ولقد أدرك جوهرُ الصقلي ــ عندما حكم مصر نيابة عن المعزــ طبيعةَ المجتمع المصري ذي المذهب السني فلم يُرد أن ينشر تعاليم المذهب الفاطمي الشيعي في مساجدهم لكي لا يثير ذلك السنيّين في مساجدهم، فلذلك قرّر بناءَ مسجدٍ يكون رمزاً لسيادة الدولة الفاطمية، فكان الجامع الأزهر هو المسجدَ الر سميَّ والكبيرَ لدولة الفاطميين.

والجدير بالذكر أنه كان بمصر قبل مجيء الفاطميين ثلاثة مساجد جامعة وهي: جامع "عمرو بن العاص " الذي أسِّس في عام21هـ/642م، وكان يسمى هذا الجامع في عصر ازدهاره (تاج الجوامع) ثم صار يُعرف بعد أن تقادم عليه العهد (الجامع العتيق)، وكان هذا المسجد هو المسجد الذي تُلقى فيه الدروس العلمية قبل إنشاء الجامع الأزهر. والمسجد الثاني هو: " مسجد العسكر " والذي بناه والي مصر (الفضل بن صالح بن علي) عام169هـ/785م وذلك عندما دخلت مصر في تبعية الخلافة العباسية.

---

[9] - محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا، ص 18

[10] - محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام ص23-24-26 / القاهرة " تاريخها وآثارها ص 17

3- موقع إسلام أون لاين نت،20 أغسطس 2001، بعنوان: الأزهر الجامع والمؤسسة

وبقي هذا الجامع قائماً حتى جاء الوزير الفاطمي " بدر الجمالي " فأزاله عندما هدم مدينة العسكر لتجميل القاهرة. أمّا المسجد الثالث فهو: " جامع أحمد بن طولون " الذي بناه وعُرف باسمه، وهذا المسجد لا يزال عامراً وقائماً حتى اليوم.

فلقد كانت هذه المساجد الثلاثة رمزاً لسيادة الإسلام الروحيّة فظلت عامرة حتى جاء جوهر الصقلي فرأى أن يستقل بالصلاة في حاضرة ولايته الجديدة وكان يخشى ثورة أهل السنة على العبارات الشيعية في الأذان والخطبة وغيرها من الشعائر، وكان جوهر الصقلي قد تعهّد للمصريين بأن يتركَ لهم الحرية الدينية وأن يقيمَ شعائرَ الدّين كما هي عليه، ولكنه لم يطبق ما تعهد به إلا لمدة قصيرة [11]

بداية حلقات العلم في الأزهر:

كان الخليفة العزيز الفاطمي أوَّلَ من حوّل الأزهر من مسجدٍ تقام فيه الشعائر الدينية إلى معهدٍ لنشر الفكر الشيعي تُدرس فيه العلوم، ويروَّج من خلاله المذهب الفاطمي.

ثمَّ خطا الأزهر في عهد العزيز بالله خطوة مهمّة نحو الأخذ بالنظام التعليمي وذلك عام 378هـ/ 988م عندما استأذن ابنُ كلس الخليفة العزيزَ في تعيين جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه، ويلازمونه، ويأخذون عنه الفقه الشيعي ليعلموه الناس، و يعقدون مجالسهم بالأزهر، وفعلاً استجاب العزيز بالله لطلب ابن كلس فعيّن نخبة من الفقهاء وكان عددهم سبعٌ وثلاثون فقيهاً وعالماً، وكان "أبو يعقوب قاضي الخندق" رئيسهم و منظم حلقتهم.[12]

أماَّ نظام الحلقات التي كانت تقام في المسجد في تلك الحقبة، فقد كان النظامَ الوحيدَ لتلقي العلم في رحاب هذا الجامع، و كان محبّو العلم يجتمعون كلَّ يوم جمعة بين صلاتي الظهر والعصر ويتدارسون العلم والمعرفة وكان على رأسهم الوزير أبو يعقوب قاضي الخندق.[13]

وقد بُنيتْ الأروقة حول الأزهر في عهد الخليفة العزيز بالله الفاطمي 975-996م، وصارت جزءاً منه وفُرشت بما يلزمها من الفرش وصارت مساكنَ للطلاب لا سيما الوافدين، وكان الخليفة العزيز أولَّ من أجرى الأرزاق على طلاب العلم الذين وفدوا للأزهر من شتى بقاع الأرض[14]

نظام ومناهج الحلقات:

لا شكّ أن الجامع الأزهر في العهد الفاطمي كان يتصدّر للتعليم فيه النابغونَ من العلماء والفقهاء والمفكرونَ في كافة فروع العلم والمعرفة، فلم تقتصرْ حلقاتُ الأزهر على تدريس الفقه والحديث والعلوم الدينية، بل كان يُدرَّس فيه بالإضافة لما ذكرنا علومُ الطبِ والفلسفةِ والرياضياتِ والفلكِ.

كما كانت تعقد فيه حلقاتٌ علمية تخصَّص للنساء.[15]

---

[11] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار ص10
محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام ص195-196
محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص17
عبد الرحمن زكي، القاهرة " تاريخها وآثارها " ص11

[12] - حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ص 163

[13] - تقي الدين المقريزي، خطط المقريزي (49/5)
عبد الرحمن زكي، القاهرة" تاريخها وآثارها" ص17

[14] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار ص10-11 / القاهرة " المرجع السابق" ص 17

[15] - حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ص166

وكما ذُكر سالفاً فإنّ نظام الحـلقات كان هو المتبَّع في نشر العلم والمعرفة فيهذا الجامع، و كان لكلّ مذهب من المذاهب الأربعة عمودٌ خاصٌّ من عمُد الجامع يجلس عنده ويتحلق بجواره طلابُ وأتباعُ هذا المذهب، وكان شيخ المذهب الذي يلقي الدرس يجلس على الأرض مستقبلاً القبلة.

أمّا الطلاب فلقد كان لكل طالب مكانٌ في الحلقة لا يتعداه، وكان الشيخ يُوكِّل أنبَه طالب عنده بإعادة إلقاء الدرس على زملائه، ويطلق على هذا الطالب اسم "المعيد" ومنه أخذت الجامعاتُ نظام المعيدين.[16]

و كان أولَ ما دُرس في الأزهر من العلوم هو الفقهُ الفاطميُّ الشيعيُّ، ففي أواخر عهد المعز لدين الله الفاطمي، وتحديداً عام 365هـ/ 975م جلس قاضي مصر أبو الحسن علي بن النعمان بن محمد بن حتون القيرواني بالجامع الأزهر، و أملى مختصر أبيه في فقه آل البيت أي: فقه الشيعة، وهو الكتاب المسمى بـ(الاختصار) ولقد حضر هذا الدرس جمعٌ كثيرٌ من الناس والعلماء، وكانت هذه أوْلى الحلقات العلمية التي عقدها بنو النعمان في هذا الجامع، ثم تلاه أخوه القاضي محمد بن النعمان389هـ/ 999م، ثم ابنه الحسين بن النعمان قاضي الحاكم بأمر الله الفاطمي، ويذكر هنا: أن بني النعمان كانوا من أكابر علماء المغرب الذين اصْطفتهم الخلافة الفاطمية واحتضنتهم وجعلتهم دعامتها وألسنتها الروحية، فلذلك لحقوا بها إلى مصر.[17]

ثم بعد ذلك قام الوزيرُ أبو الفرج يعقوبُ بن كلس الفاطمي وكان وزيراً للمعز، ثم وزيراً لابنه العزيز من بعده، وقرأ كتاباً ألفه في الفقه الشيعي على مذهب الإسماعيلية، وسمّـــاه: (الرسالة العزيزية)، وقام بتعيين جمـــاعة من الفقهاء للتدريس

بالأزهر، وجعل لهم رواتبَ مجزية، وأنشأ لهم دوراً للسكن بالقرب من المسجد، وعيَّن له الخليفة خمساً وثلاثين فقيهاً للقراءة والدروس.

وتشير الوثائق أنّ مشايخ الكتاتيب ومعظمهم من مشايخ الحديث كان لهم شأنٌ عظيمٌ لدى الدولة، وكانوا مقربين من الخلفاء الدرجة نفسها التي كان عليها شيخ الأزهر والمفتي.

و كانت حلقات ابن كلّس في الجامع الأزهر أولَ مجالس جامعية حقيقية عقدت في هذا الجامع، و تمتاز عن مجالس بني النعمان بتحرّرها من الصبغة المذهبية للدعوة الشيعية الإسماعيلية، واتجاهِ هذه المجالس نحو الغايات والأهداف العلمية قبل اتجاهها نحو المُثل المذهبية والعصبية الدينية. ولقد كان لابن كلس الفضلُ الأولُ في البداية النشطة للأزهر كمركز إسلامي مهمّ من مراكز العلم والثقافة إذ كان يجلس للسماع منه خواصُّ الناس والعوامّ منهم وسائرُ الفقهاء والقضاة والأدباء بَيْد أنه كان وزيراً للخليفة العزيز بالله.[18]

وكان يتم اختيار شيخ واحد في كل عام لقراءة صحيح البخاري في الجامع بالذات، وكان يَقرأ صحيحَ البخاري أيضاً في المناسبات الدينية كرأس السنة الهجرية ومولد النبي الكريم ﷺ، أو في أوائل شهور رجب وشعبان ورمضان، ثم بعد ذلك يُغدق الوالي أو الخليفة بالعطايا على قارئه، فيصرف له عشرة آلاف قرش.[19]

وبهذا اكتسب الأزهر لأول مرة صفته العلمية باعتباره معهداً للدراسة المنظمة.

وللأمانة والحقيقة وبعيداً عن الاختلاف الديني والمذهبي مع الشيعة، فإنّ الأزهر شهد بعد ذلك انتكاسة في العهد الأيوبي، وفقد بريقه الذي لازمه في عهد الفاطميين، ومِن المؤكد أنّ مبالغة الفاطميين في ضرب الطابع الشيعي على المسجد كان سبباً لردّة فعل أيوبية سنّية، وذلك عندما انتهت الدولة الفاطمية سنة

---

[16] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار، ص11

[17] - عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 21-39
محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام ص13
حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ص161

[18] - حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، ص162-163

[19] - محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص 19

567هـ/1171م، بعد أن تولى القائد (صلاح الدين الأيوبي) مقاليدَ الأمور في عهد العاضد، فكان الأيوبيون يعملون على إلغاءِ المذهب الشيعي ــ الذي بالغ الفاطميون بالترويج له ــ وتقويةِ المذهب السني بإنشاء مدارسَ تدرّس الفقهَ والحديث، وكانت أولُ مدرسة قام بإنشائها المدرسة الناصرية بجوار جامع عمرو بن العاص، وألغى صلاح الدين الخطبة في الجامع الأزهر، ومنع عنه كافة الموارد المالية، ثم عزل قضاة الشيعة وعيّن بدلاً منهم قضاة من المتبحِّرين في الفقه الشافعي في كل أنحاء مصر، فاجتذبت الشيوخ والأساتذة وطلاب العلم في الوقت الذي قل فيه الإقبال على الأزهر وأصيبت الحركة العلمية فيه بالشلل، ولكن هذا الحال لم يَدُمْ كثيراً حتى استردَّ الأزهرُ مجدَه وعافيته في العصر المملوكي واستعاد مكانته الشريفة باعتباره معهداً علمياً راقياً.[20]

علماء أنجبهم الأزهر في العصر الفاطمي:

كان الأزهر منذ افتتاحه مهوى أفئدة العلماء المسلمين، لا سيما وأنَّ معاهد مصر في ذلك الوقت احتلت مكانة عظيمة في رعاية الفكر الإسلامي بعد أنْ ضعف دور العلم في بغداد التي كانت هي الرائدة في نشر الثقافة الإسلامية في القرن الخامس الهجري وما قبله.

فأخذت القاهرة التي ضمّت الجامعَ الأزهرَ في حيٍّ من أحيائها تستقطب العلماءَ وطلابَ العلم من شتى أنحاء العالم الإسلامي، وما أن بدأت حلقات العلم في الأزهر تقام وتعقد حتى أصبح الأزهر مركزاً أساسياً من المراكز الإسلامية التي تعنـَى بنشر الدعوة والثقافة الإسلامية، وبدأت تنبت ثمار أساتذته وطلابه، ولقد عُرف من العلماء البارزين في علوم الدين طائفة خلدهم التاريخ في صفحاته.

وكان أوَّلَ من درَّس فيه أبو الحسن علي بن النعمان(ت374هـ)، وقد عرف بالأدب والشعر، و أول ما قرأ فيه كتاب أبيه (الاختصار)، الذي يُعد مصدراً من مصادر الفقه الشيعي، والذي قام والده بوضعه [21]، و تلاه أخوه القاضي محمد بن النعمان، و كان أيضاً من المدرسين فيه.

ومن أعلام الأزهر: الأمير المختار عز الملك محمد، والذي عرف بـ "المسبحي" (420هـ)، وكان من أقطاب العلماء ورجال الدولة الفاطمية، وكان وزيراً للحاكم بأمر الله، ونال حظوة لديه، وشغل عدة مناصب، وقد ألـّف في تاريخ مصر، ومن تآليفه: (أخبار مصر وفضائلها) ذكر فيه تاريخ مصر وما فيها من العجائب.

وممَّن نبغ فيه: أبو عبد الله القضاعي صاحب كتاب "المختار في ذكر الخطط والآثار" وقد ألف كثيراً في الحديث والفقه، وأيضاً: أبو الحسن علي الحوفي وهو عالم من علماء اللغة، ألف كتباً كثيرة في الأدب و النحو أشهرها كتاب "إعراب القرآن" (ت430هـ)، والعلامة أبو القاسم الشاطبي الذي ولد بشاطبة الأندلس سنة 538هـ قدم إلى مصر عقب انتهاء الدولة الفاطمية فقصده الطلابُ من كل حدب وصوب وكان إمامَ القراءات (ت590هـ) وكان ممن درَّسوا في الأزهر.

وممّن كان ثمرة من ثمار الأزهر واشتهر في عصره: ابن يونس، فلقد اشتهر بالرياضيات وعلوم الفلك في العصر الفاطمي، وهو الذي اخترع الرقاص أو بندول الساعة الدقيقة وكان لأرصاده وبحوثه الفلكية أثرها.

وكذلك كان مِن نتاج الأزهر: أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر،

الذي اشتهر بـ(طبيب القاهرة)، ولد 980م وتوفي 1061م، كان أبوه فرَّاناً ولاقى أهوالاً وصعاباً أثناء تعلمه ولكنه بعد ذلك برع في الطب، حتى عُين رئيساً للأطباء في عصر الحاكم بأمر الله"996-1020"، وعاصر الظاهر، والمستنصر، وله ما يقارب تسعين بحثاً في الطب أهمها: كتاب (الأصول في الطب) وهو محفوظ

[20] - موقع إسلام أون لاين الالكتروني للكاتب أحمد تمام بعنوان: الأزهر جامعاً وجامعة، 24 يونيو /2007م
محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص19
[21] - محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص 17-18

بدار الكتب المصرية وله مخطوطان في الطب بدار الكتب المصرية، أحد هذين المخطوطين يحمل عنوان (في دفع مضار الأبدان بأرض مصر). ويذكر أنه لم يتلقَّ الطبَّ عن أستاذٍ إنما علم نفسَه بنفسِه وكان يفتخر بهذا.

ومنهم: الفقيه العلامة الحسن بن الخطير الفارسي(ت598هـ)وقد درس في الأزهر زمناً طويلاً [22].

هذه طائفة من علماء الدين واللغة والتاريخ وغيرها من العلوم الذين كانوا في العهد الفاطمي والذين رضيهم الأزهر متعلمين ومعلمين، والذين رضوا بالأزهر حصناً لعلومهم من الضياع.

صلاة الجمعة في العهد الفاطمي:

بداية لا بدّ أنْ نعرف أنّ الخطابة في العصر الفاطمي كانت مِن مهامّ الخليفة، لذلك نرى أنّ الخلفاء في ذلك الوقت كانوا على مستوى رفيع من الفصاحة والثقافة الإسلامية، فلقد كانوا يحاولون التشبه بالنبي ﷺ وبالخلفاء الراشدين الذين كانوا يقومون بإلقاء الخطبة والموعظة على الرعية.

وكانت وظيفة خطيب الأزهر من الوظائف التي يطمح للقيام بها كثيرٌ ممّن يتولّون

مناصبَ في الدولة، وذكر (ابن ميصر): أنّ خطابة الجامع الأزهر أسنِدت عام 517هـ إلى داعي الدعاة أبي الفخر صالح[23]، كما ذكر المقريزي: أنّ المعزَّ والعزير كانا يقيمان الخطبة في الأزهر إلى أنْ فُتح مسجد الحاكم سنة 380 هـ فصارت الخطبة بعد ذلك تُقام بانتظام في المساجد الثلاثة: مسجد عمرو بن العاص وابن طولون والأزهر على التوالي.[24]

وقد ذكر المقريزي لنا وصفاً دقيقاً ومفصلاً لصلاة الجمعة وطقوسها كما كانت تقام في العهد الفاطمي في الجامع الأزهر في شهر رمضان:

" فقد كان المسؤول عن بيت المال يذهب مبكراً إلى الأزهر ليُشرف بنفسه على تنظيفه وتنظيمه وإعداده إعداداً متقناً وكاملاً لصلاة الجمعة التي يكون الخليفة هو الخطيبَ فيها، فيُفرش الحرَم بالسجادات الثمينة الجميلة والحصر، ثم بعد أن يكتمل الفرش والترتيبات الداخلية تغلق أبواب المسجد ويجعل عليها الحُجَّابُ والبوابون لضمان عدم دخول أحد والعبث بالمسجد، أمّا المقصورة فقد كانت توضع فيها ثلاث طنافس دمقسية أو سامانية بيضاء بعضها فوق بعض ثم يوضع فوق الطنافس الثلاثة مجتمعة حصيرة كبيرة يقال أنها كانت لجعفر الصادق وأحضرت إلى مصر سنة 400هـ في عهد الحاكم بأمر الله، وكان ينصَب على جانبي المنبر ستران أحمران، كتِبَ على الأيمن البسملة والفاتحة وصورة الجمعة، وعلى الطرف الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين، وكانت قبة فوق المنبر فكان الخليفة إذا صعد المنبر صارت القبة فوقه فكان قاضي القضاة يبخِّر هذه القبة قبل قدوم الخليفة ".

ويذكر المقريزي صفة لباس الخليفة، فيقول: أنّ الخليفة كان يوم الجمعة يرتدي ثوباً من الحرير الأبيض، ويتعمَّم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق جداً وكان يحمل بيده قضيب الملك.

وكانت تقرَع الطبول وترَّن الصنوج ويتلى القرآن بأصواتٍ عذبةٍ ونغماتٍ شجيةٍ عند ركوب الخليفة متوجهاً إلى الخطبة، فإذا وصل الخليفة قاعة الخطابة جلس فيها حتى ينتهي الأذان، ثم يخرج الخليفة ويأخذ مكانه من المنبر، وكان الوزير يقف على باب المنبر متجهاً نحو الخليفة فإذا أومأ له الخليفة صعد فقبَّل يديه ورجليه وزرَّ سترَي الحرير عليه فيكون المنبر أشبه بالهودج، ثم يرجع ويقف على الباب، وفي حال عدم وجود الوزير فإن قاضي القضاة يقوم بهذه المهمة، وكان الخليفة يختصر الخطبة ما أمكنه ذلك فكانت تشتمل

[22] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار ص 64-65
عبد الرحمن زكي، القاهرة "تاريخها وآثارها " ص30
[23] -محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام ص23
[24] -حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ص378

آية من القرآن الكريم ثم يقرأ - مذكراً نفسَه وقومَه - قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيْ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِيْ أَنعَمْتَ عَلَيّ وعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحَاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِيْ بِرَحْمَتِكَ فِيْ عِبَادِكَ الصَّالِحِيْنَ﴾[25]، ثم يدعو لوالده وجدّه ويصلي ويسلم على رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم يختم الخطبة بالدعاء للوزير ولجيش المسلمين ويدعو أن يخذل الله الكفار والمشركين، فإذا فرغ من خطبته كان يقول: "اذكروا الله يذكركم" ثم يصعد الوزير فيحلّ الستَرين عن الخليفة، ثم يصلي الخليفة بالناس مقرّباً منه الوزير و قاضي القضاة والمؤذنين، فإذا ما انتهت الصلاة خرج الخليفة وعن يمينه وزيره وعن يساره قاضي القضاة ثم يعود بموكبه إلى قصره.[26]

هذه كانت الطقوس الفاطميّة المتبعة يوم الجمعة.

يُذكر: أنّ الخليفة المعزَّ كـــان أولَ من فخَّم الاحتفالَ بصلاة الجمعة والاحـتفالَ بالأعياد والمواسم، وركوب الخليفة في المواكب الملكية أيام السبت والثلاثاء وأيام الجمع وفي شهر رمضان ويومي العيدين، وتوزيع الإنعامات والعطايا في المناسبات الدينية والسياسية.[27]

هيبة الأزهر ومكانته والعناية به في العصر الفاطمي:

لم يكن الجامع الأزهر في العهد الفاطمي مسجداً كبقية المساجد تقام فيه الشعائر الدينية فحسب، بل احتلَّ مكانة عظيمة، وشهرة واسعة في العالم الإسلامي، واهتماماً بالغاً من الخلفاء الفاطميين، فكانت الخطابة في الجامع الأزهر شرفاً يطمح لبلوغه أصحابُ المناصب في الدولة، وكان كثيراً ما يُوكَل إليه اتخاذ القراراتِ السياسيةِ المهمة.

أمّا وظيفة الأزهر فلم تكن مقصورة على إقامة الصلوات الرسمية والجُمع فحسب، بل كان في أيام الفواطم رمزاً لدعوتها وفكرها، واستمرّ الأزهر مركزاً مهمَّاً، مع أنه كان هناك مساجدُ فاطمية منافسة له في إقامة الجُمع والصلوات، ولكنّ الأزهر كان يحتلُّ المرتبة الأولى، والمكانة العظمى بالنسبة للدولة والخلفاء والمجتمع، من حيثُ صفتُه رمز الدولةِ الفاطمية والفكرِ الشيعيّ، حتى أنَّ مساجد القاهرة كانت تتبع في الأذان أصوات المؤذنين في الأزهر، لأن الميقاتيَّ ــ الذي يتنبه لأوقات الصلاة ــ كان في الجامع الأزهر، ومِن الأزهر يحدِّد وقت الصلاة، وذلك بالنظر في المزولة التي لا تزال إلى الآن قائمة على أحد جدران صحن الجامع.[28]

وقد تعهد الخلفاء الفاطميون بتجديده المستمر، كمـــــا خصُّوه بكثير من الرعـــاية والعناية وخصَّصوا الأموالَ للإنفاق عليه، فوقفوا عليه الأحباس، وقد وقف الحاكم بأمر الله بعض أملاكه من دور، ومخازن، وحوانيت، ونحوها لتنفق على الأزهر، كما خصَّص أحباساً للنفقة منها على فرش الجامع، و تأثيثه، وإنارته بالقناديل والزيت.

ولم تقتصر العناية بالأزهر على الأحباس فحسب بل كانت تخصَّص له وحده الأعطيات، ومالُ النجوى وهو الذي يؤديه الأفراد الذين يحضرون مجالس الحكمة في الجامع، وكان بعضُ هذا المال ينفق على الدعاة، وبعضُه الآخر يوزَّع على المحتاجين من طلبة الأزهر، كما كان لطلاب الأزهر المحتاجين النصيب الأوفى من الصدقات المالية والعينية التي يمنحها الأمراء لهم. وذلك بغية أن يتفرغ هؤلاء الطلاب لتحصيل العلم.

---

[25] - النمل، الآية19

[26] - تقي الدين المقريزي: الخطط المقريزية، مصر، 1987م، (281/2)

[27] - سمير فراج: الدولة الفاطمية، القاهرة، 2007م ص193

[28] - عبد الرحمن زكي: الأزهر وما حوله من الآثار ص59
حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب ص536

ولقد كان هذا الاهتمام البالغ من الخلفاء بالأزهر وطلابه وعلمائه سبباً في تحوّل المسجد إلى مركز ثقافي يقصده طلابُ العلم من مشارق الأرض ومغاربها ليتلقوا الدراسة فيه.

ولقد تجلَّى اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأزهر بإكرام علمائهِ والإغداق عليهم بالعطايا والمنح، فلقد أكرمهم الخليفة العزيز غاية الإكرام فبنى لهم دُوراً بجوار الأزهر لإقامتهم، وخصَّص لهم الرواتبَ فضلاً عن المنح التي كانت تصرَف لهم من مال ابن كلس الخاص، كما كانت تخلَع عليهم الكساوي في عيد الفطر وكانوا يصاحبون موكب الخليفة وهم يركبون بغلات تمنَح لهم في هذه المناسبة تشريفاً لهم وتكريماً. [29]

فلقد كان الخلفاء يميّزون علماءَ وفقهاءَ الأزهر عن العامَّـــــة اعترافاً منهم بفضلهم ودَوْرهم في نشر العلم وخدمة الدعوة، حتى إنَّ الطلابَ الذين كانوا يتعلمون في جمعية تعليمية أو في كتّاب من الكتاتيب المجاورة للجامع الأزهر كان يطلق على هؤلاء الطلاب اسم (المجاورين) وذلك لشرف الأزهر ومكانته، ونسبة إلى مجاورتهم للجامع الأزهر.[30]

ومن علاماتِ اهتمام الفاطميين بالأزهر أنه كان المركزَ الرسميَّ الذي يقام فيه الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وكذلك الاحتفالُ بيوم عاشوراء قبل أنْ ينشأ المشهد الحسيني في عام 549هـ/1154م، ويذكر أنّ هذا الحفل هو من أغرب المظاهر المذهبية التي رتبتها الدولة الفاطمية، كما كان الأزهر ومَنظرته المركزَ الرئيسي للاحتفال بليالي الوَقود الأربع وهي: ليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، فكان الخليفة يأتي مع زوجته ويحضر هذه الليالي في منظرة الجامع الأزهر والتي كانت بجواره من الجهة الجنوبية وتشرف عليه وكانت هذه المنظرة مطلَّة على ساحة المسجد.

وتتمثل أهميَّة الأزهر ومكانته أيضاً في أنه كان أيام المعزّ والعزيزِ والحاكمِ بأمر الله مركزاً لمجلس الحكمة الفاطمية لبثِّ الدعوة، وكان ذلك يجري من خلال قراءة علوم آل البيت وكان النساء يحضرن المجلس.

وكذلك كانت مجالس القضاء تعقد في هذا الجامع، وكذلك في جامع عمرو بن العاص، وجامع ابن طولون بعد أن كانت تعقد في دور الحكام، ويذكر المقريزي في اتعاظ الحنفا(109/2) أن أولَ من جعلها في الجامع هو القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن العوام، وهو أول من عقد الجلسات يومي الاثنين والخميس بالجامع العتيق، والثلاثاء بالجامع الأزهر.[31]

وممّا زاد اهتمام الخلفاء الفاطميين بالأزهر مقابلَ خدمتهِ لهم بنشر الدعوة الفاطمية، أنهم اختاروا الأفذاذ من العلماء المغاربة ليعقدوا حلقاتِهم العامَّة في حرمِه وساحاتِه، فلقد اصطحب المعزُّ لدين الله في موكبه عند قدومه إلى مصر جمعاً وافراً من علماء الشيعةِ وأعلامِها، مثل: قاضي القيروان أبي عبد الله بن منصور بن أحمد بن حيون الإسماعيلي القيرواني، هذا العلامّة الذي كتب كتباً كثيرة في فقه الشيعة منها (دعائم الإسلام في الحلال والحرام) و كتاب (ابتداء الدعوة) و(الهمة في اتباع آداب الأئمة) وشرح كتاب (الأخبار) وكتاب (المجالس والمسايرات) وغيرها من الكتب والمؤلفات التي تدل على علوّ كعبه في الفقه والدين وتوقدِ قريحته في التأليف والتصنيف.[32]

وأيضاً من دلائل الاهتمام البالغ بالأزهر، أنه في عهد الفاطميين لم يكن للجامع الأزهر شيخٌ يتولى رياسته الدينية، أو موظفٌ يدير شؤونه الإدارية، بل كان يتولاه الولاية العامة سلاطينُ مصر وأمراؤها أنفسُهم، أمَّا شؤونه الداخلية فكان يتابعها النخبة من مشايخ المذاهب الأربعة.[33]

---

[29] - حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ص163-164
[30] - محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص18
[31] - عبد الرحمن زكي، الأزهر وما حوله من الآثار ص60-75
[32] - حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب 161
[33] - إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي ص 201

دور الأزهر وأهميته في نشر الفكر الفاطمي:

يلحظ المتأملُ في حياة الخلفاء الفاطميين والمطّلعُ على تاريخهم أنَّ الأزهر ما كان ليُبنى لولا تفاؤل من الخلفاء الفاطميين أن يقيموا دولتهم الشيعية من خلاله، ويوسعوا دائرة معتنقي هذا المذهب في العالم الإسلامي، على الرغم من أن العادة قد جرتْ بأن يبني أمراء المسلمين و مؤسسو الدول مسجداً يجتمع فيه المسلمون وذلك فور استلامهم الحكم والخلافة، ليؤسسوا من خلاله عواصمهم الجديدة التي كانوا يفتحونها، ولكن القاهرة(الفسطاط)آنذاك كانت غنيَّة بالجوامع الكبيرة التي كان من الممكن أن تكون ملتقى للمسلمين و رجال الدولة و لكن الخلفاء الفاطميين لم يريدوا أن ينطلقوا بمذهبهم من مساجد أهل السنة كي لا يثيروا الشعب ضدَّهم.

وفي الحقيقة لم يُعرَف تماماً هل أنّ العبارات الشيعية أضيفت منذ تأسيس الأزهر، أم عند وصول المعزّ إلى القاهرة؟ ولكن مما لا شك فيه أن حركة الدعوة الشيعية تطوَّرت تطوُّراً محسوساً بقدومه حيث إنه فور وصوله إلى مصر أمر أن تـــُـنقَش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهي{ خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب }[34]

ولقد غلبت الصبغة المذهبية على الدراسة في الأزهر ولا سيما في بداية عهده.

و في ظلِّ حُكمِهم حققوا الكثيرَ من أهدافهم المذهبية عبر هذا الجامع وشهرتِه في العالم الإسلامي، رغم الوعود التي قطعها على نفسه جوهر الصقلي لأهل مصر عند دخوله القاهرة، بأن يترك لهم الحرية الدينية، وأن تقام الشعائرُ الدينية كما كانت تقام بدون تغيير فيها، إلا أن هذه الوعود ما لبثت أن نقِضَتْ فورَ الانتهاء من بناء الجامع الأزهر، ليُعلَن منبراً ومركزاً لنشر الفكر الفاطمي المتمثل في المذهب الشيعي، وترفعَ فيه الشعائر على خلاف ما كانت عليه بزيادة أو نقص عبارات سواء في الأذان أو الخطبة أو نحوها، و إنَّ من أهم العبارات التي زيدت في خطبة الجمعة: { السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعزّ لدين الله } بالإضافة إلى تغيير متسارع في كثير من الشعائر الدينيَّة.

وفي الحقيقة كان لحلقات بني النعمان ـــ القادمين من المغرب ـــ الفضل الأول في أن يتجه الأزهر منذ الوقت المبكر الاتجاه العلمي نحو فكر شيعي وذلك بقيامهم بنشر الدعوة الإسمـــــاعيلية كـــحركة فكرية وثقـــافية من خـــلال ساحـــات هذا المسجد وأروقته.

وكـــــان الأزهر مركزاً هامّاً لمجالس الحكمة التي كان يعقدها الدعاة فيه، والتي كانت غايتها الأولى بثّ الفكر الفاطمي وتوطين الإمامة الفاطمية، فكانت علوم الشيعة وفقه وأخبار آل البيت تحتلُّ من حلقات الجامع الأزهر المقامَ الأولَ.

و لقد كانت رياسة الدعوة الإسماعيلية في العهد الفاطمي تسنَد إلى موظف كبير يُطلَق عليه " داعي الدعاة " ومن أشهر مَن تقلدوا هذه الوظيفة أسرة أبي حنيفة النعمان المغربي، و كانت مجالس داعي الدعاة عادة تعقد في قصر الخليفة في مكان يُسمى بـ" دار العلم " وكان داعي الدعاة يملي فيه أصول المذهب الإسماعيلي، وكان لكلّ طبقة مجلس خاص، وكان لآل عليّ مجلس، وللخاصَّة وشيوخ الدولة مجلس ولموظفي القصور والخدم مجلس، وللعامَّة الوافدين من البلدان الأخرى مجلس، وللنساء مجلس وكان يُعقد مجلسهنَّ بالجامع الأزهر.[35]

وكان المحتسب[36] في مصر" الفسطاط " قبل العهد الفاطمي في بدايته سنيّاً، فلما دخل جوهر الصقلي مصر أقاله، وعيَّن مكانه رجلاً شيعياً، وكان ممن قدموا من المغرب وذلك سنة 359 هـ/ 969 م وهو (

---

[34] - حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب 378

[35] - حسن خضيري أحمد، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب ص 162/ 164
حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا ودول العرب ص 377/346/345

[36] - الحسبة : هي وظيفة دينية كانت تتمثل بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فكان الغرض منها الإصلاح فيما بين الناس

سليمان بن عزة) فجعل ديوان المحتسب متصلاً بديوان القاضي أي: جمع بينهما. ومن المعلوم أن ديوان القاضي كان بالأزهر وجامع عمرو بن العاص، وكان المحتسب يجلس بديوانه المتصل بديوان القاضي في جامعي عمرو بن العاص بمصر " الفسطاط " والأزهر بالقاهرة.[37]

تراجع دور الأزهر في نهاية وبعد انتهاء العهد الفاطمي:

يقول الله تعالى: ﴿ وتلكَ الأيامُ نُداولهاْ بينَ الناسِ ﴾[38] فلا بُدَّ لكل عهدٍ أنْ ينقضي، ولا بُدَّ لكل حُكمٍ أن يزولَ مهما طال الزمن، و ليست الدولـــــــــة الفاطمية بمنأىً عن سنة الله في الكون والخلق.

فلقد حكمت الدولة الفاطمية ردحاً مِن الزمن، و كان عهدُها عهدَ يُسرٍ ورخاء، و ترفٍ، وتسامح ديني و مذهبي، وثقافةٍ لم تتمتع به مصر من قبل، فلقد نهض الفاطميون نهضة سريعة بكل مجالات الحياة، و كان عهدُ الفاطميين عهدَ ثقافة دينية وسياسية واقتصادية و عمرانية غير مسبوقة.

وبعد استلامِهم زمامَ الخلافة و توطيدِ حكمهم، انغمسوا بالترف وأبهة العيش، و تركوا أمور الدولة لخدامهم ومواليهم، فتراجع دورُهم الرياديُّ في بناء الدولة والاهتمام بشؤونها و الالتفات لمصالحها السياسية والدينية ونحوها، مما أضعف شوكتهم و سيطرتهم، و أثَّر على هيبتهم أمَام الرعيَّة والعالم الإسلامي والعربي، فلم يَعُدْ أحدٌ يعترف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب، كما أن المذهبَ الشيعي صار مرفوضاً لدى الجميع لا سيما أهالي شمال إفريقية، وكانت نهاية الدولة الفاطمية بموت العاضد بعد حكم استمر في مصر ما يقارب القرنين، بدأ بالمعز لدين الله وانتهى بالعاضد و بينهما تسعة من الخلفاء.[39]

وكما أن العهد الفاطمي كان بداية ازدهار للمذهب الشيعي، فإن انقضاء العهد الفاطمي كان نهاية لهذا المذهب في ذلك الوقت، وبما أن الأزهر كان يتصدَّر المرتبة الأولى في الترويج للمذهب الشيعي فكان من الطبيعي أن يتراجع دوره بشكل ملحوظ بعد الحملة التي شنها الأيوبيون في القضاء على هذا المذهب.

وما إنْ تولى القائد صلاح الدين الأيوبي حُكم البلاد بعد القضاء على الوزير (شاور) في عهد الخليفة العاضد سنة 566هـ /1170 م حتى بدأ بإضعاف المؤسسة الفاطمية من جهة وتقوية المذهب السني في مصر من جهة أخرى، وكان ذلك عام 565هـ/1170م، فألغيت خطبة الجمعة في الأزهر.

ويُذكر: أنّ صلاح الدين قلد وظيفة القضاء للقاضي "صدر الدين بن عبد الملك بن درباس الشافعي " فعمل بمقتضى مذهبه، وهو امتناع قيام خطبتين في بلد واحد كما هو المعروف من مذهب الإمام الشافعي رحمه الله، فكانت الخطبة تعقد في بالجامع الحاكمي لأنه أوسع.[40]

* يُلحَظ من خلال الحديث عن منع صلاح الدين الخطبة في الجامع الأزهر اتهامٌ للقائد العظيم صلاح الدين، ولكنْ يؤخذ من كلام المقريزي هذا أنّ صلاح الدين ما كان لِيمنعَ خطبة الجمعة في بيتٍ من بيوتِ الله وهو الجامع الأزهر لمجرد رغبتهِ بنشر المذهب السنيّ وإقصاءِ المذهبِ الفاطميّ الشيعيّ، وإنما السببُ كما هو واضحٌ لا يعدو وجهة نظر شرعية، و عملاً بالأصلح وهو الصلاة بالجامع الحاكمي لسعة مساحته ـــ والله أعلم ـــ

وأبطل عبارة " حيَّ على خير العمل " التي كانت تذكر في الأذان في مساجد مصر، وكذلك أبطِلت من الأزهر مجالسُ الدعوة التي كانت تعقد فيه، كما أمر بذكر الخلفاء الراشدين والترضي عنهم في خطبة الجمعة، وكذلك أزال ونزع كل المناطق الفضية التي كانت بمحاريب مساجد القاهرة والتي نقشت عليها أسماء الأئمة الفاطميين.

---

[37] - إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي ص216

[38] - آل عمران، الآية 140

[39] - سمير فراج، الدولة الفاطمية، مصر، 2007، ص221

[40] - محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام، ص23

وعزل جميع القضـــــاة الشيـــعة الإسمـــاعيلية، وفوّض قضاء مصر إلى القـــاضي

"صدر الدين أبي القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني الشافعي ". وقد اشتهر المذهب الشافعي من ذلك الوقت وصار هو المذهبَ المتبع في مصر. وبذلك أخذ المصريون يرجعون شيئاً فشيئاً إلى المذهب السني وهو المذهب الذي كان منتشراً قبل العهد الفاطمي، وأخذ المذهب الفاطمي بنوعيه الإسماعيلي والإمامي يضعف ويضمحلّ في مصر إلى أن انتهى نهائياً ذلك الوقت.

وكذلك بدأ السلطان صلاح الدين بإنشاء مدارس لنشر المذهب الشافعي، وكانت أول مدرسة أنشئت هي " المدرسة الناصرية " وكانت بجوار جامع عمرو بن العاص، ثم أنشئت مدرسة أخرى لتعليم المذهب المالكي عرفت بالمدرسة " القمحية " نسبة إلى ضيعة القمح التي كان خيرها يوزَّع على الطلاب، ولقد بلغ عدد المدارس التي أنشئت كـبديل عن الأزهر في تلك الفترة ستة وعشرين مدرسة لم يبق منها إلا مدرستان هما: المدرسة الكاملية نسبة إلى منشئها الملك الكامل محمد، والمدرسة الصالحية نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب 1240- 1249 م.[41]

وقد أعيد الدرس للأزهر بعد أن انقطع فترة من الزمن، وكان أولَ ما دُرّس فيه من مذاهب أهل السنة مذهبُ الإمام الشافعي، ثم أدخلتْ إليه المذاهب السنية الأخرى فيما بعد. [42].

وهكذا انقضى عهدٌ من الزمان قبل أنْ يستعيد الأزهر عطف الولاة عليه وذلك عندما تولى الظاهر بيبرس مصر كما سنبين لاحقاً.

وضع الأزهر ما بعد العهدين الفاطمي والأيوبي إلى اليوم (نبذة):

استمر وضع الأزهر على ما هو عليه في العهد الأيوبي من إقصاء إلى أن جاءت دولة المماليك البحرية 648هـ/ 1250 م، التي تعرضت لهجومٍ شديد، ومعارضةٍ من دار الحكمة، مما جعلها تتجه إلى إحياء الأزهر من جديد، وتجلت هذه الأهمية وهذا الإحياء للأزهر ودوره في الرعاية العمرانية المتواصلة التي أولاها الظاهر "بيبرس" للأزهر 685هـ/ 1266 م فعاد الأزهر كأول أيامه من أرفع الجوامع قدراً[43]، وذلك أنه ارتأى أن يعيد خطبة الجمعة إلى منبر الأزهر ولكن قاضي القضاة ذلك الوقت (العزّ الشافعي) امتنع عن قبول ذلك، فعزله السلطان و ولى مكانه قاضياً ذا مذهب حنفي فأعيدت الخطبة عام 665 هـ/ 1266 م. كما زاد بيبرس في بناء الجامع وشجّع العلم وكرّم العلماء. ولقد حدا حدوه الكثيرُ من أمرائه أشهرهم: الأمير (عز الدين الحلّي) الذي كان يسكن بجوار الأزهر، وأقام احتفالاً رسمياً عظيماً في الأزهر ابتهاجاً بعودة الخطبة إليه، وكان يغدق على الأزهر الكثير من أمواله الخاصة.[44]

وفي ظلِّ دولة المماليك الشراكسة 784 – 923 هـ / 1382 – 1517 م تزايدت رعاية الأزهر والعناية به، وظل الأمر هكذا إلى قيام الدولة العثمانية 923هـ/ 1517م حيث إن الأزهر في تلك الحقبة استقلّ استقلالاً مالياً كاملاً عن الحكومة، وذلك أن العثمانيين لم يتدخلوا في شؤونه، ولقد انعكس بُعد اهتمامِ العثمانيين البالغ بالأزهر على الحفاظ على مكانته وتقدمه.

وفي العصر الحديث، وفي عهد محمد علي 1805-1848م أهمِل الأزهر ونظام الكتاتيب، وأقام نظام التعليم الحديث وفقاً للنظـــــام الأوروبي، وكان لهذا الأثر السلبي الواضح على الأزهر.

---

[41] - محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام ص521
محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص19- 20
حسن إبراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ص314

[42] - محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام ص23

[43] - محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص20

[44] - محمد عبد المنعم خفاجي، الأزهر يحكي قصته في ألف عام، ص23- 24

لم يكتف محمد علي بهذا فحسب، بل فرض على الأوقاف المحبوسة للأزهر وغيرهِ من المساجد أموالاً وضرائبَ باهظة، وقد حاول العلماء آنذاك أن يغيروا هذا فلم يستطيعوا، فألحق ذلك أضراراً بالأساتذة والطلاب وقلل أعدادهم في الأروقة بصورة واضحة، وكان لهذا الأثر في تضاؤل نفوذِ ودَور الأزهر في القرن التاسع عشر.

أما في عصر الخديوي إسماعيل 1863- 1879م فقد نال شيخ الأزهر ــ وكان آنذاك (محمد عباس المهدي) ــ احتراماً كبيراً ومنزلة عظمى، حيث تولى سنة1872 م عضوية مجلس الخصوص العالي أي: (مجلس الوزراء) بهدف الإشراف و النظر فيما له تعلق بالأحكام الشرعية بالإضافة إلى وظيفتي شيخ الأزهر والإفتاء.

وفي الحقيقة استطاع أنْ يبدأ في إصلاح الأزهر، ولكن انحصرت محاولته في إصلاح المنهج الدراسي والعلوم الدراسية، وسميت علوم الأزهر آنذاك بـ (الأحد عشر علماً) وبقيت هذه المواد تدرَّس ربع قرن.

ولقد أثبت الأزهر الشريف أنّ علمائه الأفاضل قادرون على قيادة وتوجيه الشعوب، فلقد قاد المخلصون من علماء الأزهر الشعب ضد الاحتلال الأجنبي، حيث اعتُبر رجال الأزهر بمثابة قادة للرأي العام يثيرون الشعب ضدّ الاحتلال، والظلم، والمشاريع الاستعمارية.

وهناك شخصيات أزهرية لا يزال التاريخ يذكرهم.

منهم: عمر مكرم " نقيب الأشراف "، والشيخ عبد الله الشرقاوي، والزعيم أحمد عرابي، والثائر عبد الله النديم، والشخصية الوطنية سعد زغلول.

حتى إن الرئيس جمال عبد الناصر عندما بدأ العدوانُ الثلاثيُّ على مصر لم يجد أمامه إلا أنْ يعتلي منبر الأزهر ليخطب بالشعب.[45]

ـ وهكذا بقي الأزهر إلى يومنا هذا جامعاً شامخاً، وجامعة عريقة، شهرتُه لا تخفى على أحد في العالم الإسلامي، وتدرس في جامعته جميع التخصّصات من العلوم الشرعية والاجتماعية والسياسية وغيرها من العلوم، وكذلك اللغات المختلفة، و لا يزال يؤمُّه طلاب العلم والمعرفة من شتى البقاع، وجميع الأرجاء، لينهلوا من معين علومه الشريفة ما ينهضون به نحو الحضارة والتقدم والازدهار وفقاً لشريعة الله القائل: ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الذيْنَ ءَامَنُواْ مِنْكُمْ وَالذِيْنَ أُوْتُواْ العِلْمَ درَجَتٍ واللهُ بمَا تعْمَلونَ خَبِيْرٌ ﴾[46]

الخاتمـــة:

لقد مرّ الجامع الأزهر منذ إنشائه بمراحلَ متتاليةٍ، و حقبٍ مختلفة، وإنّ من سُنن الحياة أنّ أيّ مركز أو معهدٍ أو مشروع أو أي شيء يبدأ صغيراً و هزيلاً، ثم ينمو ويزدهر ويتطور على كلِّ المستويات، غير أننا رأينا الأزهر من خلال البحث أنه ومنذ أيامه الأولى بدأ جامعاً مميَّزاً، و مركزاً ومرجعاً للخلافة الفاطميّة، مِن أروقته انطلقت الدَّعَوات، وفي زواياه اتُّخِذت القراراتُ السياسية والدينية والاقتصادية ونحوُها، ولقد شغلَ جلَّ اهتمام الخلفاء وأصحابِ المناصبِ الفاطميين، وكان دائماً يخطو إلى الأمام، تقدُّماً وتطوُّراً علمياً، وعمرانياً، و ثقافياً ودَعَوياً، واعتُبرَتْ تلك المرحلة كأهمّ مرحلة متقدمة في الحياة الأزهرية، وما إن انتهت الخلافة الفاطمية حتى بدأت أركانه تتهاوى و تسقط، بلْ إنه مضى قرن من الزمان في العصر الأيوبي و أبوابُ الأزهر مغلقة، و مناراته مظلمة، وساحاته مهجورة.

وبالرغم من كل الاستدراكات التي قام بها مَن جاء بعد الأيوبيين من إعادة النشاط إليه، و كثرة الوافدين عليه، إلا أن دوره لم يرتقِ إلى المستوى الذي كان عليه في العصر الفاطمي، فمَن اهتم بالأزهر من الملوك

[45] ـ محمود عباس أحمد، الأزهر وأفريقيا ص21-22-26
[46] ـ المجادلة، الآية 11

والخلفاء الذين جاؤوا بعد الفاطميين إنما كان اقتداءً بمن سبقهم من الفاطميين وإشفاقاً عليه من الانهيار بعد مجْدٍ تليدٍ مرّ فيه حيناً من الدهر، ومن تخلَّى عنه ولم يتدخل في شؤونه فإنما كان تقليلاً من شأنه، وعدمَ إدراكٍ لعظمتِه التي لازمته حِقباً من الزمان، ولدورِه الرائد في نشر الثقافة الإسلامية في أنحاء العالم، وفضلِه على الأمة من خلال علمائِها و فقهائِها ومحدثِيها الذين خرّجهم الأزهر دعاة و قادة.

ولقد مرّ الأزهر بمنعطفاتٍ خطيرة في تاريخه، وإنه رغم عظمته التاريخية، وعلى الرغم من اعتباره مرجعَ الجامعات الإسلامية، إلا أنه إلى الآن لم يلتزم منهجاً علمياً ثابتاً، فبعد أن كان الأزهر مستقلا بعلومه الشرعية والطبيعية ونحوها، دخلت عليه الآن ـــ بجامعته ومعاهده ـــ موادّ أدَّتْ إلى التقليص من مناهجه الشرعية إمَّا من حيث عددُ ساعات التدريس للمواد الشرعية، أو من حيث تقليلُ أحجام الكتب الشرعية كالفقه والحديث وغيرها من حيث الكمّ.

وإنْ بقي الأزهر جامعاً وجامعة إلى الآن، وإنْ زادت أقسامه وفروعه لتشمل تخصصاتٍ جديدة كالطب، واللغات، والهندسة، والتاريخ، وغيرها من التخصصات. إلا أنّ الهدف الأسمى مِن الأزهر وهو تخريج الدعاة والقضاة وحماة العقيدة قد تراجع بلا أدنى شك.

وربّما يرجع السبب في هذا إلى عام 1961 م عندما اتخِذ قرارٌ رسميٌّ يجعل الأزهر جامعة إسلامية خاضعة لقانون رئاسي يقضي بإعادة تنظيم مناهجه ونظامه الإداري، فأصبح مؤسسة تابعة للدولة وسياستها.

وبذلك فقد الأزهر دوره النشِط الذي عُهد عنه، وإنَّ كثيراً من القرارات اتخِذتْ، وكان لها الأثر السلبي على الأمة الإسلامية وقف الأزهر جامداً عاجزاً عن تغييرها. ولا يزال الأزهر إلى الآن لا يملك الاستقلال الكامل في التعليم الدينيّ، ولكنّنا نلاحظ شيئاً مِن إعادة المكانة المرموقة التي كان يتربع عليها، وذلك بعلامات وإرهاصاتٍ واضحة، وأهمّها ظاهرة تزايد أعداد طلاب العلم الوافدين إليه من كل الأقطار وجميع الأمصار ولله الحمد، وهذه الظاهرة تقوّيه وتحافظ على ديمومة هذا الصرح الشامخ القديم.

" أسألُ الله تعالـــى أن يحفظ للمسلمين جوامعَهم وجامعاتِهم وبلدانَهم، وأن يرزقنا العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ، إنه سميعٌ قريبٌ مجيبُ الدعـــــاء "

المصادر والمراجع:

1. د. محمود عباس أحمد، ط1، الأزهر وأفريقيا " دراسة وثائقية "، الدار العالمية للنشر والتوزيع.
2. د. عبد الرحمن زكي، ط1، الأزهر وما حوله من الآثار، الهيئة المصرية للتأليف والنشر.
3. د. محمد عبد المنعم خفاجي، ط1، الأزهر يحكي قصته في ألف، الإسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
4. د. إبراهيم رزق الله أيوب، التاريخ الفاطمي السياسي، بيروت، الشركة العالمية للكتاب.
5. د. حسن إبراهيم حسن، ط4، تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
6. د. محمد سهيل طقوش، ط1، تاريخ الفاطميين في شمال إفريقيا ومصر وبلاد الشام، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.
7. سمير فراج "ابن الشاطئ"، الدولة الفاطمية "موسوعة التاريخ الإسلامية"، القاهرة، مركز الراية للنشر والاعلام.
8. د. حسن خضيري أحمد، ط1، علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب، القاهرة، مكتبة مدبولي.
9. د. عبد الرحمن زكي، ط1، القاهرة " تاريخها وآثارها من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ"، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
10. تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، ت 845هـ، ط2، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، "الخطط المقريزية"، مصر، مكتبة المثنى، بغداد، مكتبة الثقافة الدينية.